مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار الرابع عشر
المجلد (٥) العدد (١)
٢٠٢٤ (٧٦-٩٢)

الثّقافة الإسلاميّة بين أصالة المصدر وتحدّيات العصر

د. سلوى بن أحمد

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٢٤ فبراير ٢٠٢٤م

الملخّص

إنّ المنهج الدّيني الإسلامي قد أسّس لثقافة شاملة تجمع مختلف سياقات الحياة ضمن ضوابط أخلاقيّة وقيميّة، تكرّس لوعي وجودي و واقعي بحاضر الأمّة وتاريخها، وهذا المنهج هو نفسه الذّي صقل صورة الشّخصيّة الإسلاميّة، وبغضّ النّظر على الغزو الثّقافي والفكري ومختلف المطاعن التّي واجهت ثقافة الإسلام، فإنّه من الممكن كسب هذا التّحدّي ومواجهة هذا الغزو اعتمادا على وسائل عديدة خاصّة منها العمل على توعية المجتمعات الإسلاميّة بضرورة الوحدة والتّمسّك بالهويّة وفق برامج مدروسة تسهم كذلك في تعرية المثال الغربي الزّائف .

الكلمات المفتاحيّة: الثّقافة الإسلاميّة، التّحدّيات، الآثار، العولمة، العلمانيّة، الاستشراق

ABSTRACT

The Islamic religious approach has established a comprehensive culture that brings together the various contexts of life within ethical and value controls, devoting an existential and realistic awareness of the present and history of the nation, and this approach is the same one that refined the image of the Islamic personality. Regardless of the cultural and intellectual invasion and the various challenges that faced the culture of Islam, it is possible to win this challenge and confront this invasion by relying on many means, especially working to educate Muslim societies about the need for unity and adherence to identity according to well-studied programs that also contribute to the nudity.

Keywords : Islamic culture, challenges, effects, globalization, secularism, orientalism

*** المقدّمة**

يرتبط تاريخيّا كلّ وجود إنساني بمظاهر حضاريّة وعادات وأعراف معيّنة أنّثت وكوّنت خصوصيّة ذلك التّجمّع الإنساني في زمن معيّن ومكان معيّن، وهو ما أسّس الهيكل الثّقافي الخاص به، فالثّقافة إذا هي هويّة تميّز كلّ أمّة عن غيرها وتمكّنها من التّموقع داخل فيزيائيّة المدينة الكونيّة التّي تكتسب من خلالها الحقّ في المحافظة على سمات ثقافتها وتطويرها والتّعريف بها.

وتعتبر الثّقافة الإسلاميّة أزخر الثّقافات تنوّعا وانسجاما وأعرقها على الإطلاق، ذلك لأنّها كانت نتيجة لإسهامات وإبداعات شعوب عدّة احتكّت بالمسلمين من طرق مختلفة أهمّها الفتوحات والتّجارة وتبادل العلوم وغير ذلك، ما جعل منها ثقافة عالميّة تكتسب مميّزات خاصّة بها، لكنّها في المقابل مهدّدة بجملة من الأخطار الخارجيّة التّي تسعى لطمسها وإذابتها، ما يستدعي طرح عدّة إشكاليّات.

*** مشكلة الدّراسة**

تطرح هذه الدّراسة عدّة إشكالات: ماهي مصادر الثّقافة الإسلاميّة التّي تستمدّ منها استمراريّتها؟ وماهي أهدافها؟ وماهي أبرز الخصائص التّي اتّسمت بها وميّزتها عن غيرها؟ وماهي أخطر المهدّدات التّي تواجهها ومآلاتها وسط هذا الخضم العالمي المشحون بصراع الثّقافات؟

*** ما يميّز هذه الدّراسة عن غيرها**

أهمّ ما يميّز هذه الدّراسة كونها في خضم طرحها لإشكال الثّقافة الإسلاميّة بيّنت أهمّ المهدّدات التّي تمثّل خطرا كبيرا على الدّين والمجتمع الإسلامي، ثمّ فصّلت وقدّمت الآثار المترتّبة عن ذلك وهي آثار واقعيّة حاصلة داخل المجتمعات الإسلاميّة عامّة.

أوّلا_– في تعريف الثّقافة الإسلاميّة

١– في بيان المفهوم لغة واصطلاحا

أ– الثّقافة لغة

أصل كلمة الثّقافة من الفعل الثلاثي (ثَقِـــف) بضم القاف وكسرها، يقال "ثَقِفَ الشيءَ ثَقْفاً وثِقافاً وثُقُوفةً: حَذَقَه، ورجل ثَقْفٌ حاذِقٌ فَهِم، ورجل ثَقْفٌ لَقْفٌ وثَقِفٌ لَقِفٌ وثَقِيفٌ لَقِيف بَيِّنُ الثَّقافةِ واللَّقافة".[1]

وثَقُفَ الرجلُ ثَقافةً أي صار حاذِقاً خفيفاً مثل ضَخُم، فهو ضَخْمٌ، ومنه الـــمُثاقَفةُ، وثَقِفَ أَيضاً ثَقَفاً مثل تَعِبَ تَعَباً أَي صار حاذِقاً فَطِناً، فهو ثَقِفٌ وثَقُفٌ مثل حَذِرٍ وحَذُرٍ ونَدِسٍ ونَدُسٍ، وقد ورد في حديث الهِجْرةِ "وهو غلام لَقِنٌ ثَقِفٌ" [2]أَي ذو فِطْنةٍ وذَكاء، والمراد أَنّه ثابت المعرفة بما يُحتاجُ إليه[3].

وبناء على ما سبق فإنّ لمصطلح الثّقافة مَعَانٍ عديدة، مِنْهَا الحَذق في إدراك الشَّيء وفِعله، وسُرعة الفَهْم والظَّفر بالشَّيء.

[1] ابن منظور، جمال الدّين محمّد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3/ 1414هـ ، 19/9.

[2] البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب اللّباس، باب التّقنّع، حديث رقم 5807، 145/7.

[3] ابن منظور، لسان العرب، 19/9.

ب– الثّقافة الإسلاميّة اصطلاحا

ارتبط تعريف الثّقافة الإسلاميّة ارتباطا وثيقا بالمنهج الدّيني الإسلامي في تحديد المعنى والمصدر على اعتبار وأنّ مجمل ضوابطها مستمدّة من الوحيين، فاصطلح أنّها "مجموعة المعارف والمعلومات النّظريّة، والخبرات العمليّة المستمدّة من القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة التّي يكتسبها الإنسان ويحدّد على ضوئها طريقة تفكيره ومنهج سلوكه في الحياة "[1].

والحقيقة أنّ الثقافة الإسلاميّة علم يجمع بين التّأصيل الشّرعي كعلم معياريّ مؤلّف من أحكام إنشائية، أي أحكام قيم خاضعة للنّقد، كعلم الأخلاق من جهة، وعلم واقعيّ من جهة أخرى يتمثّل في الوعي الوجودي والواقعي بحاضر الأمّة الإسلاميّة وتاريخها، بالتّالي فالثقافة لا تنحصر في شكل معيّن من الأشكال بل تشمل شتّى نواحي الحياة فهي تمسّ مختلف الأنساق المعرفيّة والحياتيّة منها الأدب والتّاريخ والعلوم الطّبيعيّة وغيرها.

٢– مصادر الثّقافة الإسلاميّة

من المعلوم سلفا أنّ مصادر التّشريع الإسلامي هي محاور أساسيّة وهامّة للثّقافة الإسلاميّة على اختلاف مستوياتها، وقد ضبطت وبيّنت ونظّمت مختلف الحركات الفكريّة والحياتيّة ليس فقط لأمّة الإسلام بل لمختلف شعوب العالم، والقرآن الكريم أوّل مصدر للثّقافة الإسلاميّة وهو المصدر الشّرعي والأصلي الأوّل تعضده السّنّة النّبويّة كثاني مصدر أصلي من مصادر التّشريع الإسلامي.

إلى جانب المصادر الأصليّة التّي كوّنت هيكل الثّقافة الإسلاميّة قد ساعدت عدّة مصادر فرعيّة أخرى في استكمال البناء الثّقافي لدى المسلمين، كانت نتيجة للفكر العقلاني لعلماء هذه الأمّة ونتيجة تجارب هامّة مرّت بها، ومن هذه المصادر الإجماع والقياس اللّغة العربيّة والتّاريخ الإسلامي وكذلك التّراث الإسلامي ومختلف الخبرات الإنسانيّة النّافعة وغير هذا، غير أنّنا سنقتصر على أهمّها في سياق هذا التّحليل.

أ– المصادر الأصليّة

• القرآن الكريم

وهو "كلام الله المُعجز المُنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة الأمين جبريل عليه السّلام، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتّواتر، المتعبّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، والمُختتم بسورة الناس"[2]، ويُمثّل المصدر الأوّل للتّشريع الإسلامي، وقد سمّي القرآن بأسماء عديدة منها الذّكر، يقول تعالى (إِنَّا **نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ** وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[3]، وسمّي الفرقان ومنه قوله تعالى (**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**)[4]، وعرف كذلك بالكتاب لقوله تعالى (**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا** فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[5].

[1] مصطفى مسلّم و فتحي محمّد الزّغبي، الثّقافة الإسلاميّة تعريفها مصادرها مجالاتها تحدّياتها، إثراء للنّشر والتّوزيع، عمان الأردن، ط1/ 2007، ص18.

[2] الصّابوني، محمّد علي، التّبيان في علوم القرآن، جاكرتا- دار الكتب، ط /دت، ص8.

[3] الحجر، 9.

[4] الفرقان، 1.

[5] الأنبياء، 10.

وقد تميّز القرآن الكريم بعدّة خصائص كانت في حدّ ذاتها إعجازا على عدّة أصعدة، وأهمّها اشتماله على رسالة الإسلام وإقامة الحجّة من خلالها على باقي الأجيال.

والقرآن الكريم هو المنبع الرّئيس للثّقافة الإسلاميّة من خلال الآيات الكريمات التّي ألّمت بمنهج النّشاط الإنساني بمختلف وجوهه، والتّي اعتنت بالأحكام والعبادات والمعاملات، والتّي من خلالها قرّر النّسيج الثّقافي الذّي تقوم عليه العلاقات بين الأفراد والمجتمعات والشّعوب.

- **السّنّة النّبويّة**

هي كلّ ما نُقِل عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أقوال وأفعال وتقرير، وصفات خَلْقية وخُلُقية، سواءً أكان ذلك قبل البعثة أم بعدها[1]، وهي المصدر الثّاني من مصادر التّشريع الإسلامي ومن خلالها بيّن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ما جاء مجملا في القرآن الكريم وخصّص وقيّد ما احتاج للتّخصيص والتّقييد، كما قد أتى بأحكام لم يتعرّض لها القرآن الكريم.

وتتجسّد المنظومة الثّقافيّة الإسلاميّة في السّنّة النّبويّة قولا وفعلا، فسيرته صلّى الله عليه وسلّم هي التّطبيق الكلّي للإسلام من ناحية، وهي أضواء على سنن الله سبحانه وتعالى في اصطفاء أنبياءه ورعايتهم وعصمتهم من ناحية أخرى.

ب– المصادر الفرعيّة

- **الإجماع**

عرّفه الجرجاني أنّه "اتّفاق مجتهدي أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم في عصر من العصور على أمر ديني"[2]، وأضاف بعض المجتهدين "بعد وفاة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم" على اعتبار وأنّ الإجماع لا ينعقد في حياته صلّى الله عليه وسلّم.

ويعتبر الإجماع المصدر الثّالث من مصادر التّشريع الإسلامي وفي تصديق حجّيته ورد في الذّكر الحكيم (**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ** مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)[3]، وهو بالتّالي يكون مصدرا من مصادر الثّقافة الإسلاميّة، ولهذا حدّد أهل العلم شروطا يجب أن تتوفّر في المجتهد تضبط سلامة اجتهاده وهي أن يكون عالما باللغة العربيّة وقواعدها، وعارفا بأسباب النّزول، وأن يكون مطّلعا على تاريخ التّشريع الإسلامي وعارفا بالنّاسخ والمنسوخ .

- **القياس**

وهو المصدر الرّابع للتّشريع الإسلامي، يقول تعالى في آية صريحة بحجّيته (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)[4]، وفي موضع آخر قال تعالى (**فَاعْتَبِرُوا يَا** أُولِي الْأَبْصَارِ)[5] تعقيبا على حادثة بني النّضير كتحذير لمن يخون الله ورسوله من سوء العاقبة التّي

[1] المقدسي، أبو محمّد بن قدامة، روضة النّاظر وجنّة المناظر، مؤسّسة الرّيّان للطّباعة والنّشر، ط2002/2، ج274/1.
[2] الجرجاني، علي بن محمّد الشّريف، التّعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م، ص8.
[3] النّساء، 115.
[4] النّساء 83.
[5] الحشر، 2.

حصلت لهؤلاء القوم، فبنو النّظير هم المقيس عليهم وأمّا المحذّرين من غيرهم هم المقيس فهذا الفرع، والعلّة التّي كانت السّبب في احلال العقوبة بهم هي خيانتهم لله ولرسوله وعهودهم للمسلمين[1]، وقد عرّفه البيضاوي بأنّه "إثبات حكم معلوم في معلوم آخر لاشتراكهما في علّة الحكم عند المثبت"[2]، وذهب ابن الحاجب إلى أنّه "مساواة فرع لأصل في علّة حكمه"[3].

وقد تعدّدت تعريفات القياس لأنّ هذه العمليّة من الأمور الدّقيقة في ضبطها، حتّى أنّ البعض ذهب للقول بعدم إمكانية تحديد تعريف دقيق للقياس، وذلك لأنّ الوفاء بشرائط الحدود في تعريفه شديد، ومنهم الإمام الجويني (-1085م/ 478ه)، والذّي يقول في البرهان "وكيف الطّمع في حدّ ما يتركّب من النّفي والإثبات والحكم والجامع؟ فليست هذه الأشياء مجموعة تحت خاصّيّة نوع، ولا تحت حقيقة جنس."[4]

ويُفسّر الزّحيلي أنّ عمليّة القياس مظهرة للحكم وليست مثبتة له، وأنّ العلّة هي أساس الحكم وأنّ عمل المجتهد هو إظهار الحكم على الفرع بسبب اتّحاد العلّة بين الفرع والأصل[5]، بالتّالي فإنّ في الأخذ بالقياس تحقيق لمصالح العباد وهو مقصود الشّرع، وتحقيق المصلحة هو عين مقصود النّسيج الثّقافي الإسلامي، وبما أنّ وقائع النّاس غير محدودة ولا متناهية، فإنّ القياس بخاصّيّته الاجتهاديّة في استخراج الحكم يساير مختلف الوقائع المتجدّدة، بالتّالي هو معين هام ورافد من روافد الثّقافة الإسلاميّة التّي تولد من رحم إنسانيّة تتجدّد وتتطوّر كلّ يوم.

• التّاريخ الإسلامـــــــــــــــــي

يقول مصطفى مسلّم "لقد أوجد الإسلام حضارة ربّانيّة في مدّة قياسيّة لم يشهد تاريخ الإنسانيّة لها مثيلا على مستوى البشريّة من حيث المفاهيم والمبادئ، فأحلّت مقاييس وموازين ربّانيّة محلّ المقاييس الجاهليّة"[6]، يمكن أن ننطلق من هذا القول لإثبات كيف أنّ التّاريخ الإسلامي زاخر بتجارب قويّة في نحت حضارة الأمّة بدءا من زمن الوحي إلى يوم النّاس هذا.

قام الإسلام على زرع قيم هامّة أهمّها المساواة بين البشر، فلا فرق بين أعجميّ وعربي إلاّ بالتّقوى درءا للنّعرات القبليّة والعرقيّة، قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)[7].

وإنّ جأش المسلمين ووعيهم قد كان من أمره الكثير في ثبوت وتماسك هذه الحضارة بل هو مقوّم أساسي لها، وإنّ لمن أخبارهم في القصص القرآني لعبر يسجّلها التّاريخ البشري

[1] مصطفى مسلّم و فتحي محمّد الزّغبي، الثّقافة الإسلاميّة تعريفها مصادرها مجالاتها تحدّياتها، ص 86.
[2] البيضاوي، عبد الله، منهاج الوصول إلى علم الأصول، تحقيق شعبان محمّد إسماعيل، دار ابن حزم، ط1/ 1429هـ، ص54.
[3] ابن الحاجب، جمال الدّين، مختصر ابن الحاجب في علم أصول الفقه، دار المنهاج، ط1/ 1444هـ ، 5/3,
[4] الجويني، البرهان، 2/ 489.
[5] الزّحيلي، وهبة، أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1/ 1996، ص603.
[6] مصطفى مسلّم و فتحي محمّد الزّغبي، الثّقافة الإسلاميّة تعريفها مصادرها مجالاتها تحدّياتها، ص 91.
[7] الحجرات، 13.

في مصير الأمم السّابقة، وكيف سارت فيهم سنن الله تعالى، وكيف كانت مواقفهم من رسالات الرّسل والأنبياء، وكل ذلك يعطي للفرد المسلم عبرة وموعظة في الثبات والتّمسّك بالعقيدة، ولذلك كان القصص وسيلة من وسائل تثبيت النّبي عليه الصّلاة والسّلام وصحبه، قال تعالى (وَكُـــلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)[1].

وإنّ تربية الأجيال على الاعتزاز بهذا الدّين، والحفاظ على مبادئه وقيمه وأخلاقه، من أهمّ الأسباب في الحفاظ على هذا التّاريخ وهذه الحضارة، يروي إسماعيل بن محمد حفيد الصحابي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول " كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويعدها علينا وسراياه، ويقول يا بني هذه شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها"[2].

فأمّة الإسلام قد أضافت على المنظومة الحضاريّة البشريّة سياقات جديدة في مختلف العلوم التّرجمة والفلسفة والفيزياء والرّياضيّات والطّب والأدب وغيرها، بل إنّها قد اكتشفت علوما وأسّستها، و لم تكن ناقلة فقط للمعارف، بل وضعت لبناتها الأولى وطوّرتها، حتّى قدّمت للبشرية مناهج علميّة متينة، كان لها الأثر الجليّ في قيام حضارة الغرب في الفترات اللاّحقة.

- **اللّغة العربيّة**

يقول الجرجاني في تعريفه للّغة "هي ما يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[3] ، فهي الوسيلة الأساسيّة للتّواصل وتبادل الأفكار وإيصال العواطف، وهي وسيلة من وسائل العلوم على اختلاف الألسن، وقد لعبت التّرجمة من اللّغة العربيّة إلى غيرها دورا هامّا في نشر الثّقافة الإسلاميّة.

وعلى اعتبار أنّ اللّغة العربيّة هي لغة القرآن (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[4] ، فقد جذبت كلّ الأجناس على اختلاف أطيافها وأديانها إلى تعلّم هذه اللّغة سواء لاستيعاب القرآن ومعرفة كنه هذا الدّين، أو سعيا للتّواصل مع المسلمين لعدّة أغراض أخرى، يقول محمود شاكر محمّد إنّ "ثقافة كلّ أمة وكلّ لغة هي حصيلة أبنائها المثقفين بقدر مشترك من أصول وفروع، كلّها مغموس في الدين المتلقي عند النشأة، فهو لذلك صاحب السّلطان المطلق الخفيّ على اللّغة وعلى النّفس وعلى العقل جميعا، سلطان لا ينكره إلاّ من لا يبالي بالتّفكر في المنابع الأُوَل التّي تجعل الإنسان ناطقاً وعاقلاً ومُبيناً عن نفسه، ومُستَبيناً عن غيره"[5].

ولعل تعدّد فنون الأدب في اللّغة العربيّة له دور هام في بناء المنظومة الأخلاقيّة والأخلاق جزء من المنظومة الثّقافيّة الإسلاميّة، يقول ابن تيمية (واعلم أنّ اعتياد اللّغة يؤثر في العقل، والخُلُق، والدّين تأثيرا قويا بيّنا، ويؤثر أيضا في مشابهة

[1] هود، 120.
[2] الشّامي، محمّد بن يوسف الصّالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد صلّى الله عليه وسلّم، تحقيق مصطفى عبد الواحد، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، 1997م، ج4، ص 10.
[3] الجرجاني، التعريفات ج1، ص 247.
[4] فصّلت، 3.
[5] شاكر، محمود محمّد، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصريّة العامّة للكتب، ط د.ت، ص 72.

صدر هذه الأمّة من الصّحابة والتّابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق)[1].

٣- أهمّيّة الثّقافة الإسلاميّة

تبرز أهمّية الثّقافة الإسلاميّة من حيث الدّور الذّي تلعبه في ترسيخ مبادئ وتعاليم الإسلام فهي عامل رئيس في تأصيل المفاهيم الإسلاميّة، بما يسهم في تنمية العقل و الفكر، بالتّالي من حيث المستوى التّطبيقي تعمل على رفع المستوى العلمي للفرد بما يساهم في مزيد تقدّم والمجتمعات وتحضّرها.

والثّقافة الإسلاميّة كوكبة من الضّوابط التّي تكوّن البناء الأخلاقي للمجتمع، بالتّالي هي رافد أوّل للازدهار الحضاري ورفع المستوى الأخلاقي وتعزيز الشّعور بالهويّة والانتماء وحبّ الدّين والوطن ودحض مختلف مظاهر الكراهية و العنصريّة والفكر المتطرّف والإرهاب.

ومن حيث النّاحية الرّوحيّة فإنّ الثّقافة الإسلاميّة توفّر للفرد الاطمئنان الذّاتي والرّوحي على اعتبار وأنّها معين ربّانيّ في زمن ماديّ بحت، لا يعترف بالإنسانيّة بل يستهلكها ويستنزفها خوفا من ضياع مصالحه الشّخصيّة والماديّة في ظلّ عصر الآلة والتّطوّر التّكنولوجي الذّي أفضى إلى رأسماليّة جشعة ضاعت فيها كلّ طقوس وأعراف الحبّ والسّلم.

ثانيا- مهدّدات الثّقافة الإسلاميّة وأنماط التّحدّي

إذا ما تحدّثنا عن التّحدّيات التّي تواجهها الثّقافة الإسلاميّة فإنّنا بصورة مباشرة نتحدّث عن المهدّدات التّي تواجه الإسلام كديانة، بالتّالي فالتّحدّيات عديدة وشائكة، وهي فكريّة بالأساس وجوهريّة على اعتبار وأنّ هذه المهدّدات هي مطاعن تمسّ عمق الدّين الإسلامي بغية إضعافه ومسخ ثقافته، ومن أبرز هذه المهدّدات:-

١- العولمة والعلمانيّة

والعولمة ظاهرة عالميّة عرفها المجتمع الإنساني عامّة، وقد عرّفها الدّكتور محمّد سعيد رمضان البوطي أنّها "نسبة أمر ما إلى العالم، وذلك عن طريق الخروج به عن التّقوقع في القوم أو المنطقة أو الإقليم إلى الاندماج في العالم بمعناه الشّامل الواسع".[2]

وهي خطر موجّه للعالم الإسلامي بالأساس حيث أنّها "المنهاج الغربي الأمريكي يسعى لجرّ العالم العربي والإسلامي خاصّة حتّى يصبح جزءا لا يتجزّأ من جهاز يتمثّل في مجتمع كبير، تحرّكه الإدارة الأمريكيّة لمصلحة الصّهيونيّة العالميّة"[3].

وفي المقابل فإنّ العلمانية هي اللاّدينيّة، بمعنى إبعاد الدّين عن مختلف مجالات الحياة أي إقامة هذه الحياة على غير الدّين، ومصطلح العلمانيّة هو ترجمة للفظ «سكيولاريزم secularism »الذّي استخدم في البدايات ليشير إلى علمنة ممتلكات الكنيسة أي نقلها إلى سلطات غير دينية، ثمّ اتّسع

---

[1] ابن تيمية، أحمد، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، ط7/ 1999م، ج1، ص 527.

[2] البوطي، قضايا ساخنة، ص219.

[3] ن م، ص219.

معنى المصطلح مع جورج يعقوب هوليوك (ت1906م)[1]، الذّي عرّفه بأنّه الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية، دون التّصدي لقضية الإيمان بالقبول أو الرفض[2].

فيما بعد تطوّر مفهوم العلمانيّة ليصبح معناه فصل الدّين عن الدّولة وهو المعنى الأكثر انتشارا وشيوعا سواء في الأوساط الغربيّة أو الشّرقيّة، حتّى وصلنا تدريجيّا إلى المعنى الحالي المراد منه البعد عن الدّين وجعله محصورا في دور العبادة فقط.

على أنّ الإسلام دين عالمي، يقول تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)[3]، وعليه فإنّ العالميّة التّي نشدها الإسلام ليست بالعالميّة المتأتّية من العولمة الغربيّة، كشأن استعماري جديد، يشرح البوطي هذا قائلا "أما الخروج إلى العالم من دائرة القوم والإقليم والبلدة، للتّعرّف على الأمم الأخرى، والتّفاعل معها بالإفادة والاستفادة ... فأساس ذلك أنّ الإسلام جاء عالمي النّزعة إنسانيّ المبادئ والقيم، لا يتحيّز في شرعه ومبادئه لقوم دون قوم، يرمي العدالة العالمية التّي يستوي في حكمها العربي والأعجمي، والأبيض والأسود بل المسلم وغير المسلم"[4]، بالتّالي فالعولمة بمعناها الحيادي هو ما دعا إليه الإسلام، وهو ما أطلق عليه التّعاون العالمي، أمّا العولمة بمفهومها الغربي فهي "التّبعيّة الاستعمارية بشكلها المرفوض".[5]

ولقد كانت هذه العولمة على أشكال وأصعدة مختلفة، سياسيّة، واقتصادية، وفكريّة وثقافيّة إلخ... وعليه فهي بمثابة العصا الغليظة التّي سلّطت على العالم العربي، على اعتبار وأنّه قد جُبر إلى دخول عصر العولمة دون جاهزيّة أو استعداد كاف، ممّا أدّى إلى تفاقم الأزمات وتصدّع الكتلة العربيّة عامّة، وهذه العولمة كانت بابا كبيرا للعلمانيّة حتّى تتصدّر المشهد، وتوجّه أصابع النّقد والاتّهام للإسلام، وإن كانت أصابع مرتعشة ليست في الاتجاه الصّواب، وعلى رأي الدّكتور البوطي "الحق يناجي العقل دائما، أمّا الباطل فإنّما يُحاول أن يتسلّل خفية منه إلى رغائب النّفس، والحق يتعامل مع النّاس بالأدلّة والبراهين الحرّة، أمّا الباطل فيستعين للوصول إلى نفوس النّاس بالكاريكاتير السّاحر، أو التّشويه الكاذب، أو الصّور المستبشعة" [6]، وهكذا هي العلمانيّة تشويه كاذب لثقافتنا.

لقد سعت العلمانيّة للقدح في العلم وأساليبه لدى المسلمين، في كلّ قاعدة مقرّرة جاء بها الدّين أو فهمها أو أجمع عليها علماء الدّين طوال القرون الماضية، كلّ هذا بحجّة الحرّية في التّعلّم والتّعليم[7]، وهذه الحرّية التّي يدعون إليها

---

1 كاتب وسياسي إنكليزي هو أوّل من صاغ مصطلح العلمانيّة ونشره في مقال بمجلّة ذي ريزونور سنة 1878م، توفّي سنة 1906م عن عمر يناهز الثمان وثمانين سنة.

2 العلمانيّة تحت المجهر، ص18.

3 الأنبياء، 107.

4 البوطي، قضايا ساخنة، ص220.

5 ن م، ص223.

6 البوطي، إلى كلّ فتاة تؤمن بالله، دار الفرابي، ط2/ 2004، ص 9.

7 فودة، سعيد عبد اللّطيف، الرّد على كتاب التّفكير في زمن التّكفير لنصر حامد أبو زيد، (كتاب غير مطبوع) نسخة إلكترونيّة، ص10، على الرّابط الموالي (تاريخ الدّخول 2020/03/18) : https://archive.org/details/ahbab

متفلّتة من أيّ قاعدة، هي غوغائيّة محضة، فأصحاب هذا الاتّجاه يريدون تحليل التّاريخ الإسلامي ونقده بناءه على مقولات إيديولوجيّة، و تحليل وتصوير التّاريخ الإسلامي بناء على مقولاتهم، حتّى تكون النّتيجة الحاصلة ولا شكّ مخالفة لأصول الدّين الإسلامي[1]، فالإسلام "لا يتطلّب أكثر من أن تكون المعرفة معرفة صحيحة صافية من الشّوائب، وبعيدة عن التّحيّز إلى أي جهة قد تبعدها عن ميزانها العلمي الحيادي."[2]

يقدّم الدّكتور البوطي تفسير مهمّ للظّاهرة العلمانيّة حيث يعتبر أنّها بوجهين، وجه حقيقيّ محايد يتجلّى على الأراضي الغربيّة، يقول "على أنّ علمانيّة أوربة، علمانيّة حياد... فهي ليست أكثر من تقسيم المجتمع ومرافق الحياة بين أصحاب الاختصاص، في نظرهم وبمقياس عقائدهم"[3]، ووجه مزيّف هدّام للمجتمع وللثّقافة والمبادئ الإسلاميّة، وهي "العلمانيّة التّي يدعو إليها هواة التّقليد، فإنّما هي سلاح كيد للإسلام، وجسر ينصبّ إلى حربه والقضاء عليه"، والأصل السّببي في الفرق بين العلمانيّتين "أنّ الواقع اتّخذ من كلمة العلمانيّة سلاح حرب لاهبة شعواء ضد الإسلام، بكلّ ما حواه من مبادئ وأحكام، شأنه في ذلك شأن كثيرين مثله انتهجوا نهجه واستهدفوا قصده."[4]

وزبدة القول بناء على ما سبق، أنّ العلمانيّة الأوروبيّة خطوة منظّمة إلى الإسلام في حين أنّ العلمانيّة التّي يراد تطبيقها في المجتمعات الإسلاميّة، هي خطوة منظّمة إلى اعتناق الإلحاد وتخريب كلّ المنظومة الثّقافيّة وآليّاتها.

٢- حركة الإستشراق

يبقى دائما الشّرق ساحرا للغرب، فبعد الإستشراق الاستعماري عاد الغرب بخطط جديدة وطرق حاذقة للسّطو على الشّرق، من خلال حركة الإستشراق، والتّعريفات الاصطلاحية التّي تبين مدلول هذا اللّفظ تفضح ذلك، يقول إدوارد سعيد[5] أنّه " أسلوب في التّفكير مبني على تميّز متعلق بوجود المعرفة بين الشّرق وبين الغرب، وهو ليس مجرد

---

[1] يسوق سعيد فودة مثالا لتفنيد رأي العلماني نصر حامد أبو زيد صاحب كتاب "التّفكير في زمن التّكفير"، المليئ بشبهات لا أساس لها، قضيّة أسلمة المعرفة مثلا يقول " فلو تأمّلنا كيف يوضّح أبو زيد هذا المفهوم مع احتياجه إلى تقييد في نفسه لوجدناه مغالطا في ذلك، فهو يشرحه وكأنّ الإسلاميّين يقولون إنّ جميع العلوم والمعارف موجودة في القرآن والسّنة وهذا يتضمّن بالطّبع أنّ علوم الهندسة والفيزياء والطّب إلخ.. كلّها موجودة في الكتاب والسّنة، وهذا الكلام يستحيل أن يقوم به إنسان عاقل يعرف ما هو الإسلام... كيف يقال بذلك وقد ورد أحاديث صريحة تنصّ على أنّ النّاس أعلم بأمور دنياهم، وكيف يقال هذا وقد اتّفق أهل السنّة على الاحتياج إلى القياس في الأحكام الشّرعيّة، لأنّه ليس كلّ حادثة يوجد نصّها حكما في الكتاب والسّنّة."(فودة، سعيد عبد اللّطيف، الرّد على كتاب التّفكير في زمن التّكفير، ص12.)

[2] فودة، تفنيد الأسس النّظريّة والعلميّة للإلحاد، ص130.

[3] البوطي، المذاهب التّوحيديّة والفلسفات المعاصرة، ص 223.

[4] ن م، ص323 .

[5] مفكّر فلسطيني مغترب توفّى سنة 2003 بنيويورك، عرف باهتماماته الثّقافية والأدبيّة والسّياسيّة وخاصّة القضيّة الفلسطينيّة، من أشهر الكتّاب حول الإستشراق والمستشرقين وذلك نظرا لعدّة عوامل أهمّها اغترابه فهو يحلّل الظّاهرة من عقر داهم إلى جانب إتقانه الشّديد للغة الإنجليزيّة (ادوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر محمد العناني، دار رؤية، القاهرة 2006، ص4.

موضوع سياسي أو حقل بحثي ينعكس سلباً باختلاف الثقافات والدراســات أو المؤسسات وليس تكديساً لمجموعة كبيرة من النصوص حول المشرق... إنّه توزيع للوعي الجغرافي إلى نصوص جمالية وعلمية واقتصادية واجتماعية وفي فقه اللغة".[1]

وهو بحسبه أيضا " المجال المعرفي أو العلم الذي يُتوصل به إلى الشرق بصورة منظمّة كموضوع للتّعلم والاكتشاف والتّطبيق[2]"، ويضيف الرّجل "مؤسسة مشتركة للتّعامل مع الشّرق بإصدار تقارير حوله، ووصفه ودراسته والاستقرار فيه والسّيطرة عليه وحكمه، وهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة عليه واستبنائه وامتلاك السيادة عليه". [3]

يُفهم من كلام إدوارد، أنّ الاستشراق نوع من الإسقاط الفكري الغربي على الشّرق، بالتّالي وسيلة للتمييز العملي والثّقافي طُبّقت على العالم غير الأوروبي من أجل ترسيخ الهيمنة الاستعمارية الأوروبيّة عليه.

ويشير مالك بن نبي[4]، إلى أنّ أهل الاستشراق على نوعين، منهم المتعصّب ومنهم المنصف، يقول "إنّنا نعني بالمستشرقين الكتّاب الغربيين الّذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية، ثم علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمّى طبقات على صنفين، الأوّل من حيث الزمن طبقة القدماء مثل جرير دورييك والقديس توما الأكويني وطبقة المحدثين مثل كاردوفو وجولد تسيهر، والثّاني، من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين في كتاباتهم، فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها."[5]

يمكن التّعقيب على كلام بن نبي بالقول أنّ أهل الإستشراق كان منهم من درس الحضارة الإسلاميّة بفكر موضوعي، بغضّ النّظر عن الدّوافع والأهداف، ومنهم من كان منطلقة أيديولوجي فعمد إلى التّدليس والطّعن، وهم الكفّة الغالبة، وغرضهم الأساسي الحملات التّبشيريّة التّنصيريّة.

لقد كان لدراسات المستشرقين حول المذاهب الإسلاميّة، تأثير كبير في نفوس وعقول الدّارسين العرب والباحثين، بل ويمكن القول أنّه قد كان لهم دور رئيسي في الصّراعات المذهبيّة داخل العالم الإسلامي والتّي لا تزال آثارها إلى اليوم، فعمِلت على ضرب مذهب بآخر ودحض رأي بآخر، ما عزّز صبغة التّشدّد المذهبي بين مختلف هذه الطّوائف الإسلاميّة، فَصَار البعض منهم يَسمع لِيَرُد وليس يَسْمع لِيَفْهَم.

نستمدّ هذا الموقف هذا من خلال العديد من البحوث الإستشراقية التّي تسنّى لنا الإطّلاع عليها، والتّي اعتنت بنشأة هذه المذاهب وآراءها العقديّة ومؤسّسيها

[1] سعيد، إدوارد، الإستشراق المفاهيم الغربيّة للشّرق، ترجمة محمّد عناني، رؤية للنّشر والتّوزيع، ط1، القاهرة 2006م ص9.
[2] سعيد، إدوارد، الإستشراق ، ص12.
[3] الإستشراق المفاهيم الغربيّة للشّرق، ص301.
[4] مفكّر جزائري معاصر، ولد1905م وتوفّي سنة 1973م، كان يسعى لبناء فكر إسلامي حديث ودراسة المشكلات الحضاريّة له عدّة مؤلّفات أهمّها كتاب شروط النّهضة وكتاب الظّاهرة القرآنيّة ومشكلة الثّقافة وكتاب الإسلام والديمقراطية. (السحمراني، أسعد، مالك بن نبي مفكّرا إصلاحيا، دار النّفائس، ط2/ 1984، ص 16/15).
[5] ابن نبي، مالك، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت 1969، ص6/5.

وأتباعها، على فترات متفاوتة من الزّمن، ما ينذر بالاهتمام الشدّيد والتّتبّع الكبير من قبل هؤلاء المستشرقين، لدراسة الفكر الإسلامي والبحث فيه ومعرفة جوانبه المختلفة، فقد كتبوا عن الطّائفة الوهابية مثلا من خلال كتاب "مذكّرات عن البدو والوهابيين"، لجـِوهان لودفيج بوركهارت "Burckhardt Lewis John"[1]، وقد ترجم جزءا منه عبد الله الصّالح العثيمين[2]، في مؤلّف بعنوان "مواد لتاريخ الوهابيين".

يقول بوركهارت " لم تكن مبادئ محمّد ابن عبد الوهاب مبادئ ديانة جديدة، بل كانت جهوده موجّهة فقط لإصلاح المفاسد التّي تفشّت بين المسلمين ونشر العقيدة الصّافية بين البدو الذّين كانوا مسلمين اسميّا، لكنّهم جهلاء بالدّين وغير مُبَالين بكلّ فروضه التّي أوجبها".[3]

يُعظّم المؤلّف الحركة الوهابيّة التّي يرى أنّ مبادئها من نبع الدّين الإسلامي، مشيرا إلى أنّ إسلام البدو في شبه الجزيرة العربيّة خلال تلك الحقبة سطحي، وأنّ لا علاقة لهم بالدّين الإسلامي سوى كُنيةً، ومعتبرا أنّ ابن عبد الوهّاب المُصلح الدّيني دون غيره.

والحقيقة تثني الوهابية على كتابات المستشرقين الدّاعمة لطائفتهم الثّناء الكبير، يقول أستاذ التّاريخ الحديث بجامعة الملك سعود عويضة بن متيريك الجهني، وهو أحد مترجمي كتاب "سير هارفورد جونس برايدجس" SIR Harford Jones Brydges [4]، المُعَنون "موجز لتاريخ الوهابي"، إذ " لفت هذا الكتاب (موجز لتاريخ الوهابي) نظري منذ فترة طويلة لكونه قد خُصّص للحديث عن الدّعوة الإصلاحيّة السّلفيّة النّجدية والدّولة السّعوديّة في دورها الأوّل، ولكون مؤلّفه السير هارفرد جونز بريدج معاصرا للأحداث التّي يتحدّث عنها وقريبا منها، وكان في الوقت نفسه أحد موظّفي الحكومة البريطانيّة ... هذا إلى القدر الكبير

[1] رحّالة سويسري ولد 1199ه، درس اللّغة العربيّة بجامعة كامبريدج، زار الجزيرة العربيّة وعلى إثرها كتب العديد من المؤلّفات التّى تعنى بالحضارة العربيّة الإسلاميّة توفّي 1233ه (روبن بدول، الرّحالة الغربيّون في الجزيرة العربيّة، ترجمة عبد الله بن آدم نصيف، جامعة الملك سعود، الرّياض 1409،1989م ، ص 22).

[2] مؤرّخ سعودي من مواليد 1936م، له مؤلّفات عديدة منها " تاريخ المملكة العربيّة السّعوديّة " وكتاب " الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب حياته وفكره"، وقد توفّي سنة 2016م (الحقيل، عبد الكريم بن حمد بن إبراهيم، معجم مؤرخي الجزيرة العربية في العصر الحديث، ط1، 1414هـ/1993م،ج1، ص95-96).

[3] بوركهارت، جوهان لودفيج، " مواد لتاريخ الوهابيّين"، ترجمة عبد الله الصالح العثيميين، مؤسّسة الانتشار العربي، جوان 2005، ص10.

[4] ولد 1764م ، موظّف لدى الحكومة البريطانيّة ومتقن ماهر للغة العربيّة عاش زمنا طويلا في البصرة :
(THE DICTINARY OF NATIONAL BIOGRAPHY ED BY SIR LESLIE STEPHEN AND SIR SIDNEY JEE –OXFORD UNIVERSITY PRESS (since 1917) VOL3 - P 161) .

من الموضوعيّة والحياد الذي أبداه المؤلّف في كتابه هذا تجاه الدّعوة الإصلاحيّة والدّولة السّعوديّة" [1].

والحقيقة أنّ أصل هذا الكتاب لمن لا يعلم، تقرير سياسي ألحقه كاتبه بتقرير سابق له تحت عنوان "وصف لإجراءات رحلة جلالة الملك لبلاط فارس من 1807-1811م"، وليس "هارفرد جونز بريدج" كما يصفه الوهابيون في تراجمهم بالموظّف فقط، بل إنّه حاكم على البصرة من قبل بريطانيا، وقد كتب هذا الأخير تقارير مطوّلة حتّى أنّ لا صلة له بالأمانة العلميّة فقد اعتمد في كتاباته على المستشرق "بوركهارت" ونقل عنه في عدّة مواضع وما هكذا تدرس تواريخ وحضارات الأمم.

يسعى الكيان الإستشراقي من خلال دراساته لتغريب الفكر الإسلامي وإذابته، يقول "غابرييل هانوتو" وهو مؤرّخ ودبلوماسي فرنسي توفّي سنة 1944م[2] "وأفضل الطّرق لتثبيت ولاية المستعمر الأوروبي على البلاد الإسلاميّة، هو تشويه الدّين الإسلامي وتصوّره في نفوس معتقديه بإبراز الخلافات المذهبيّة ... مع شرح مبادئ الإسلام شرحا يشوّهها وينحرف بها عن قيمها الأصليّة [3].

هذا التّصريح خطير جدا، يُثبت فعلا أنّ المستشرقين ركّزوا في بحوثهم على المسائل الخلافية الشّائكة بين الفرق الإسلاميّة والخطيرة في المجال العقدي، محاولين إثبات أصلها إلى المسيحيّة خاصّة، حتّى يُؤثّرُوا على المسلمين، وإن كانوا لا يعتمدون أيّ منهج علمي في ذلك سوى الكذب والتّلفيق.

يقول محمّد الغزالي (ت1996) صاحب كتاب "دفاع عن العقيدة والشّريعة ضدّ مطاعن المستشرقين"، "عندما تناولت كتاب "العقيدة والشّريعة" لجولد تسيهر منّيتُ النّفس بمطالعة بحث جيّد، فإنّ المؤلّف مستشرق لامع الاسم واسع الاطلاع – كما بلغنا- والمترجمون نَفَر من الأساتذة النّابهون، ومن خدع الآمال أن أنتظر من أحد المستشرقين بحثا مبرّأ عن العيوب فذلك شيء يتنافى مع وظيفة الاستشراق الذّي يُمهّد الطّريق أمام الاستعمار الغربي والشّرقي، كما تُمهّد الدّبابات الطريق أمام زحف المُشاة في فنون الحرب".[4]

لقد استمات أهل الاستشراق في تشويه الثّقافة الإسلاميّة وضرب أهمّ روافدها بدءا بالقرآن وصولا إلى اللّغة العربيّة، فأثاروا شبها مردودا عليها منها مثلا شبهتهم في تضارب آيات القرآن الكريم، التّي ردّ عليها الشّيخ محمّد متولّي الشّعراوي مؤكّدا أنّ "شبهاتهم هذه نتاجا لضعف ملكتهم اللغوية" [5].

خطاب التّشكيك الذي قدّمه المستشرقون حول المصدر الأوّل للتّشريع الإسلامي، خطاب عقلي لكنّه مفتقر

[1] بريدج، سير هارفورد جونس، ترجمة عويضة بن متيريك الجهني، دارة الملك عبد العزيز، ط1425/1 ه ، ص9.

[2] Hanoteau Adolphe et Aristide Letourneux, La Kabylie et les Coutumes Kabyles, Paris, L'imprimerie Nationale, p1.

[3] جمعة، لطفي، الله أو الدّمار، مؤسسة دار المختار الإسلامى للطباعة والنشر, 1976 ، ص65.

[4] الغزالي، محمّد، دفاع عن العقيدة والشريعة ضدّ مطاعن المستشرقين، نهضة مصر للطّباعة والنّشر، ط7 / 2005 ص3.

[5] الشّعراوي، محمّد متولّي، خواطر الشّعراوي حول القرآن الكريم، أخبار اليوم، عالم الثّقافة، ط/ دت، مجلّد1، 29/1.

إلى الأدلّة المنضبطة، بالتّالي اعتمد الشّعراوي على أدوات عقليّة بحتة وهي التّعليل والتّدليل، على اعتبار وأنّ غاية التّعليل بسط القضايا وتفسيرها بناء على خلفيّة العلم بالعلل.

وإنّ من شروط تحقيق ذلك العلم وسع المدارك لمن يشتغل بها فضلا على الكفاية الحواريّة، بالتّالي يكون لكلّ طرف وظيفة مختلفة عن الآخر، وتتمثّل في وظيفة العَارِضِ للمُخَاطِبِ ووظيفة المُعترض للمخَاطَبِ[1]، مع تحقيق القصديّة بعرض مقدّمات سليمة تسمح ببناء الاستنتاج بغية الإقناع، وهذا كان تمشّي إمام الدّعاة في حجاجه مع المشتشرقين، ومن ذلك نسوق مثالا من خواطر الشّعراوي، ورد في صيغة حواريّة كما أدرجه صاحبه:-

- يقول المستشرقون: " إنّ في القرآن تناقضا في الكونيّات".

- نقول لهم مستحيل.

- يقول المستشرقون: "لقد جاء في القرآن (***قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ*** وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)[2]، ويقول (***رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ*** وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)[3]، ويقول (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)[4]، وبين هذه الآيات تناقض ظاهر".

- نقول إنّ التّقدّم العلمي جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات، فكلّ مكان على الأرض له مشرق وله مغرب هذه هي النّظرة العامّة، إذن فقوله تعالى (***رَبُّ الْمَشْرِقِ*** وَالْمَغْرِبِ) صحيح، ثمّ عرفنا أنّ الشّمس حين تشرق عندي تغرب عند قوم آخرين، وحين تغرب عندي تشرق عند قوم آخرين إذن فمع كلّ مشرق مغرب ومع كلّ مغرب مشرق، فيكون هناك مشرقان ومغربان، ثمّ عرفنا أنّ الشّمس لها مشرق كلّ يوم ومغرب كلّ يوم يختلف عن الآخر، وفي كلّ ثانية هناك شروق وغروب إذن فالقسم هنا (بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) لأنّ المشارق والمغارب مختلفة على مدار السنّة "[5].

وبناء على المنطلقات السّابقة، فإنّ الاستشراق يهدف إلى ضرب عمق الدّين الإسلامي وهدم ثقافته وتشكيك النّاس في صحّته، ولقد ساهم بدرجة كبيرة في انتشار ظاهرة الإرهاب داخل الرّقعة الجغرافيّة الإسلاميّة ومن ثمّة نسبتها إلى الإسلام.

رابعا- انعكاسات هذه المهدّدات على الثّقافة الإسلاميّة

طبعا كثيرة هي الآثار السّلبيّة لجلّ هذه المهدّدات التّي سبق ذكرها في ثنايا هذه الدّراسة، والرّامية أساسا لتغريب وطمس الثّقافة الإسلاميّة، وسنشير إلى أخطرها على الإطلاق على اعتبار أنّ ما لن نذكره في سياق هذا التّحليل يندرج قطعا ضمن سياقات هذه الثّلاث معظلات والتّي هي أساسا:-

١- أنظمة حكم جائرة ومستبدّة

وهي قائمة على أساس الدّعم الغربي لأنظمة الحكم المعاصرة، التّي تمثّل خطرا على الهويّة الإسلاميّة، والتّي تزيد من تذمّر الشّارع الإسلامي من ظلمها وفسادها، كما ستسعى هذه الأنظمة لتحقيق مطامع غربيّة أهمّها مسألة التّطبيع مع العدو وهي من أكثر المسائل المستفزّة لمشاعر المسلمين

[1] عبد الرّحمان، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط 4/ 2010 ص71/70.
[2] الشّعراء، 27.
[3] الرّحمان، 17.
[4] المعارج، 40.
[5] الشّعراوي، محمّد متولّي، خواطر الشّعراوي حول القرآن الكريم ، مجلّد 8، ص 5081/5080 .

وعقيدهم، وقد سقطت في الفترة الأخيرة عدّة دول إسلاميّة في هذا المستنقع بتعلّة العلاقات الدّوليّة والمصالح المشتركة، ومنها مثلا المغرب الذّي خطَى خطوة التّطبيع مع إسرائيل، وللأسف تقدّم مثل هذه الخطوات تحت عنوان الإسلام والسّلام غير أنّ الفرق كبير بين الإسلام والاستسلام في أمر التّطبيع مع العدوّ، وإنّما يخطّط لتغييب السّلام وإحلال الاستسلام محلّه، فالسّلام بين الشّعوب، بل بين أفراد الأسرة الإنسانيّة، إنّما يعني الألفة التّي تشيع فيما بينهم... أمّا الاستسلام فهو نتيجة لمكيدة يخطّطها القويّ متربّصا بها الضّعيف، مستغلاّ عجزه وضعفه، فإذا تمّت الخطّة وتحقّقت الغاية، كان على الضّعيف أن يرضى بالمصير الذّي سيق إليه، وأن يتجاهل حقوقه التّي جرّدت منه، فإن هو أبى وراح يتوثّب للمطالبة بحقّه مستنجدا بمن يطمع في عونه وإنصافه، غدا بذلك عدوّا للسّلام، مجنّدا لحساب الإرهاب".[1]

٢- التّخلّف الفكري

وهو نتاج للانبهار الذّي عشيت له أعين الأمّة الإسلاميّة من مظهر النّهضة الأوروبيّة، التّي تحقّقت في أعقاب تحرّر أوروبا من سلطان الكنيسة، حتّى تكوّنت تلك القناعة المهيمنة على عقول أولئك الذّين تشبّعوا نفسيّا، وفكريّا، بالأطروحة القائلة بأنّ الأنظمة الحضاريّة الحديثة أكثر استجابة للحاجات، والمصالح العصريّة التّي يتطلّبها إنسان لهذه الحضارة اليوم، من أنظمة قديمة تساق إليهم من وراء حواجز القرون بإسم الإسلام.."[2]، حتّى صار النّاس "يقيسون الصّواب والغلط في المسائل المستحدثة بالنّسبة إلى موافقتها للغرب أو عدم موافقتها"[3]، وعليه فهذه التّبعيّة الغربية ساهمت في انتشار مذهب الشّكّ عند المسلمين، الذّين أضحوا يجرّبون كلّ المنظومات الفاشلة في بلدانهم المتأتّية من الغرب والتّي لا تتلاءم ولا تتواءم مع طبيعة مجتمعاتهم، ما ساهم في إسقاط مختلف النّظم الأساسيّة، التّي تبلور خطط بنّاءة تخدم المستقبل العلمي والثّقافي للمجتمعات الإسلاميّة.

٣- الانحلال الأخلاقي

تمثّل الأخلاق التّرجمة الحقيقيّة للثّقافات المجتمعيّة، بالتّالي هي المقياس الأساسي لمعياريّة التّحضّر، والتّفاضل بين المجتمعات، غير أنّ الأخلاقيّات العامّة اليوم تشهد تراجعا كبيرا، نتاجا للخطط الممنهجة التّي عملت على خنق القيم وتحويل الإنسان إلى ركام من الغرائز الحيوانيّة، فحينما يُصوّر لك الآخر السّعادة وفق نموذجه المجتمعي، والذّي هو غريب عن أصولك، ومنطلقاتك، وعقائدك، ويبهرك بصورة مزيّفة، صورة وقتيّة تسقط منذ أوّل إمتحان، فإنّك تركض وراء سرابه، لتستيقظ فيما بعد على كمّ هائل من النّتائج السّلبيّة التّي تضرب منظومة الأخلاق الإسلاميّة، ولنا اليوم في سائر مجتمعاتنا المقلّدة والمتبنّية للمنظومات الأجنبيّة أبلغ مثال، يقول البوطي في هذا السّياق "وإنّ في ذاكرتي لصورا كثيرة لرجال إسلاميين قفزوا إلى كراسي الحكم وأمسكوا بنواصيه

[1] البوطي، محمّد سعيد رمضان، السّلم في الإسلام: مصدره وضماناته، مجلّة دراسات إسلاميّة، العدد 15 (نيسان أبريل، حزيران، يونيو) 2009م، كلّية الشّريعة جامعة دمشق.

[2] البوطي، محمّد سعيد رمضان، الإسلام والعصر تحدّيات وآفاق، دار الفكر، ط/2010، ص20.

[3] فودة، سعيد، الموقف، 65 .

متجاوزين واجب التّربية والدّعوة والإقناع بالحجج العلميّة والثّقافيّة، فلم يتأتّ منهم أن يُصلحوا أيّ فساد أو يُقوّموا أيّ إعوجاج"[1]، فبُروز النّعرات السّياسيّة والتّفرّد بالرّأي خاصّة بعد الثّورات العربيّة، في ظلّ التّناقضات وإزدواجيّة المعايير السّياسيّة أدّى إلى التّملّص من كلّ الأخلاقيّات والإلتزامات الشّرعيّة والتّشريعيّة.

*** خاتمة**

تطوّرت واختلفت أساليب التّجذّر الدّيني والثّقافي حتّى أضحى منها الغير مشروع، ولكن برغم صعوبة التّحدّيات التّي تواجهنا نحن كمسلمين من حيث التّمسّك بثقافتنا وترسيخها والحفاظ على معالمها، فإنّ مصادرها الرّصينة تجعلها صالحة لكلّ زمان ومكان ومحكمة وصلبة أمام أيّ تحدّيات خارجيّة تواجهها.

إنّ المنهج الدّيني الإسلامي قد أسّس لثقافة شاملة تجمع مختلف سياقات الحياة ضمن ضوابط أخلاقيّة وقيميّة، تكرّس لوعي وجودي و واقعي بحاضر الأمّة وتاريخها، وهذا المنهج هو نفسه الذّي صقل صورة ومثال الشّخصيّة الإسلاميّة التّي منها تأتّت هذه الأمّة العظيمة التّي **كانت** (خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران: 110]، واستنادا على هذا الإقرار الرّبّاني فإنّ المبادئ الأساسيّة لثقافة خير الأمم تجعل منها تبحث في مختلف المستجدّات والتّحدّيات المعاصرة وتؤصّلها تأصيلا دقيقا وشرعيّا يضفي عليها صبغة الصّلاح بناء على تلك الخيريّة.

وبغضّ النّظر على الغزو الثّقافي والفكري ومختلف المطاعن التّي واجهت ثقافة الإسلام، على أنّ وتيرتها ازدادت خلال العصر الحديث، فإنّه من الممكن كسب هذا التّحدّي ومواجهة هذا الغزو اعتمادا على وسائل عديدة خاصّة منها العمل على توعية المجتمعات الإسلاميّة بضرورة الوحدة والتّمسّك بالهويّة وفق برامج مدروسة تسهم كذلك في تعرية المثال الغربي الزّائف.

*** المراجع**

أولاً– المراجع العربية

ابن الحاجب، جمال الدّين، مختصر ابن الحاجب في علم أصول الفقه، دار المنهاج، ط1/ 1444هـ .

ابن تيمية، أحمد، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، ط7/ 1999م.

ابن نبي، مالك، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت 1969.

البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب اللّباس، باب التّقنّع

بريدج، سير هارفورد جونس، ترجمة عويضة بن متيريك الجهني، دارة الملك عبد العزيز، ط1425/1 ه .

بوركهارت، جوهان لودفيج، " مواد لتاريخ الوهابيّين"، ترجمة عبد الله الصالح العثيميين، مؤسّسة الانتشار العربي، جوان 2005، ص10.

البوطي، إلى كلّ فتاة تؤمن بالله، دار الفرابي، ط2/ 2004.

البوطي، محمّد سعيد رمضان، السّلم في الإسلام: مصدره وضماناته، مجلّة دراسات إسلاميّة، العدد 15

[1] البوطي، وهذه مشكلاتنا، ص63.

(نيسان أبريل، حزيران، يونيو) 2009م، كلّية الشّريعة جامعة دمشق.

البوطي، محمّد سعيد رمضان، الإسلام والعصر تحدّيات وآفاق، دار الفكر، ط/2010 .

البيضاوي، عبد الله، منهاج الوصول إلى علم الأصول، تحقيق شعبان محمّد إسماعيل، دار ابن حزم، ط1/ 1429هـ .

الجرجاني، علي بن محمّد الشّريف، التّعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م.

جمعة، لطفي، الله أو الدّمار، مؤسسة دار المختار الإسلامى للطباعة والنشر, 1976.

الحقيل، عبد الكريم بن حمد بن إبراهيم، معجم مؤرخي الجزيرة العربية في العصر الحديث، ط1، 1414هـ/1993م.

الزّحيلي، وهبة، أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1/ 1996.

السحمراني، أسعد، مالك بن نبي مفكّرا إصلاحيا، دار النّفائس، ط2/ 1984.

سعيد، إدوارد، الإستشراق المفاهيم الغربيّة للشّرق، ترجمة محمّد عناني، رؤية للنّشر والتّوزيع، ط1، القاهرة 2006م.

شاكر، محمود محمّد، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصريّة العامّة للكتب، ط د.ت.

الشّامي، محمّد بن يوسف الصّالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد صلّى الله عليه وسلّم، تحقيق مصطفى عبد الواحد، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، 1997م.

الشّعراوي، محمّد متولّي، خواطر الشّعراوي حول القرآن الكريم، أخبار اليوم، عالم الثّقافة، ط/ دت.

الصّابوني، محمّد علي، التّبيان في علوم القرآن، جاكرتا- دار الكتب، ط /دت.

عبد الرّحمان، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط 4/ 2010.

الغزالي، محمّد، دفاع عن العقيدة والشريعة ضدّ مطاعن المستشرقين، نهضة مصر للطّباعة والنّشر، ط7 / 2005.

فودة، سعيد عبد اللّطيف، الرّد على كتاب التّفكير في زمن التّكفير لنصر حامد أبو زيد، (كتاب غير مطبوع) نسخة إلكترونيّة، على الرّابط : https://archive.org/details/ahbab

مصطفى مسلّم و فتحي محمّد الزّغبي، الثّقافة الإسلاميّة تعريفها مصادرها مجالاتها تحدّياتها، إثراء للنّشر والتّوزيع، عمان الأردن، ط1/ 2007.

المقدسي، أبو محمّد بن قدامة، روضة النّاظر وجنّة المناظر، مؤسّسة الرّيّان للطّباعة والنّشر، ط2/2002.

ثانياً- المراجع أجنبيّة

Hanoteau Adolphe et Aristide Letourneux, La Kabylie et les Coutumes Kabyles, Paris, L'imprimerie Nationale.

The Dictionary of national biography ed by sir Leslie Stephen and sir Sidney Jee –Oxford universty press (since 1917) .